بلاغة الحِجاج بين موسى وفرعون والسحرة في سورة طه: دراسة بلاغية نقدية

إعداد:
أ/ اوريدة مصباح عبدالسلام محمد
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة سرت

الاستلام: 12.5.2025 القبول: 30.6.2025

المستخلص:

يتناول هذا البحث دراسة بلاغية نقدية للحوار الحجاجي في سورة طه بين موسى عليه السلام وفرعون والسحرة، من خلال تحليل الخطابَ القرآني في ضوء الأساليب البلاغية الحديثة، كالتكرار، والتقابل، والصورة البيانية، والفاصلة القرآنية، والإيقاع. كما يستعرض البحث استراتيجيات موسى عليه السلام في التدرج الحواري، واستخدام المعجزة كوسيلة إقناع، في مقابل خطاب فرعون القائم على التهديد والتشكيك، وكذلك استراتيجيات موسى في الحوار مع السحرة وكيف تحولوا من خصوم إلى مؤمنين، فصاروا شركاء في الحِجاج ضد فرعون بلغة إيمانية صارمة، ويبيّن البحث كيف تنتصر الحجة القرآنية على الخطاب السلطوي من خلال خطاب عقلاني مؤثر، يعتمد على أدوات بلاغية حجاجية دقيقة. وقد خلص إلى أن الحوار في السورة يُمثّل نموذجًا رفيعًا لبلاغة القرآن في مقارعة الباطل بالحجة والبيان.

الكلمات المفتاحية: الحِجاج القرآني – سورة طه – بلاغة موسى – خطاب فرعون – الأسلوب البلاغي.

Abstract:

This research presents a rhetorical and critical analysis of the argumentative dialogue in Surah Taha, focusing on the interaction between Prophet Moses, Pharaoh, and the magicians. It explores the Qur'anic rhetorical strategies such as repetition, contrast, metaphorical imagery, Qur'anic rhyme (fāsila), and rhythmic patterns. The study highlights how Moses' discourse utilizes logic and emotional appeal to counter Pharaoh's authoritarian rhetoric and psychological intimidation. The analysis reveals how the Qur'an employs persuasive tools to construct an effective, layered argument that combines rational clarity with emotional impact. Ultimately, the research concludes that the dialogue in Surah Taha serves as a powerful model of Qur'anic eloquence in confronting falsehood with truth and rhetorical mastery.

Qur'anic Argumentation – Surah Taha – Moses' Eloquence – Pharaoh's Rhetoric – Rhetorical Style .

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب هدى وشفاء، والصلاة والسلام على من أُوتي جوامع الكلم، محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يمثل الحجاج في القرآن الكريم بُعدًا بلاغيًا عميقًا، يتجاوز الأسلوب الجدلي الظاهري إلى بناء حواري متكامل يرتكز على العقل والوجدان معًا، وتُعدّ قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة في سورة طه نموذجًا حيًا للحجاج القرآني الذي يُبنى على التدرج والتقابل والتأثير النفسي والبلاغي، يتناول هذا البحث تحليل الأسلوب الحجاجي في هذا النص، من خلال أدواته البلاغية (كالاستفهام، النفي، التكرار، الصور البيانية، الفاصلة، الإيقاع...) وتقنياته الإقناعية التي تتجلّى في خطاب موسى عليه السلام من جهة، وفي الخطاب السلطوي لفرعون من جهة أخرى.

يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي البلاغي النقدي، الذي يهدف إلى دراسة الأدوات البلاغية والإقناعية التي استخدمها القرآن الكريم في حواره بين موسى وفرعون والسحرة، سيتم تحليل الخطاب القرآني من خلال فحص الأساليب البلاغية كالتكرار، والتقابل، والصورة البيانية، والفاصلة القرآنية، والإيقاع الصوتي، بهدف الكشف عن دور هذه الأدوات في تشكيل الخطاب الحجاجي وتأثيره على السامع، كما سيتم مقارنة بين خطاب موسى وخطاب فرعون في سياق التفاعل الحجاجي.

يهدف هذا البحث إلى تحقيق عدة أهداف رئيسية:

1. دراسة الاستراتيجيات البلاغية لموسى عليه السلام في حواره مع فرعون والسحرة وكيفية استخدامه للمعجزة كأداة إقناعية.
2. استكشاف تأثير الخطاب القرآني على السامع من خلال الأدوات البلاغية المستخدمة، وكيف يمكن لهذه الأدوات أن تؤثر في قلوب وعقول المتلقين.

1- مفهوم الحجاج:

يُعد الحجاج أحد الأبعاد المركزية في الفعل البلاغي، إذ لا يُختزل في كونه وسيلة لإثبات الرأي أو دحضه، بل يتجلى كمنظومة معرفية متكاملة تقوم على التأثير والإقناع، وتتنوع في أدواتها وأساليبها تبعًا للسياق والمقام، وقد حظي مفهوم الحجاج باهتمام واسع لدى البلاغيين العرب قديمًا وحديثًا، حيث تعاملت كل حقبة معرفية مع الحجاج وفقًا لرؤاها ومناهجها.

في التراث العربي، تناول الجاحظ الحجاج من منظور بياني، حيث عرّف البيان بأنه «اسم جامع لكل ما كشف عن المعنى وهتك الحُجُب عن المقصود»[1] معتبراً أن البيان وسيلة حجاجية تؤسس للمعنى وتكشف الحق، هذا التصور يجعل البلاغة أداة للحقيقة، لا للزينة، أما عبد القاهر الجرجاني، فقد أبرز في كتابه **دلائل الإعجاز** أن الحجاج لا يتحقق إلا من خلال (نظم الكلام)، أي ترتيب المعاني والعبارات وفق مقتضى الحال، ويقول: «ليس النظم إلا توخي معاني النحو وأحكامه، ووجهُ أن تعمد إلى معنى فتُركبه في الجملة على أسلوب مخصوص»[2] وبهذا، تتجلى البلاغة عنده في البناء المنطقي الذي يخاطب عقل المتلقي وفي ذات الاتجاه، يشير ابن

(1) البيان والتبيين، الجاحظ، دار مكتبة الهلال بيروت، 1423هـ، ط1، ج1ص81.
(2) ينظر :دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق ياسين أيوب، المكتبة العصرية، ط1، 2000، ص38.

الأثير إلى أن البلاغة الحقيقية «هي التي تؤدي إلى قبول المعنى في النفس بغير عنف، وتستدرج السامع إلى الإذعان بإقامة الحجة لا بإثارة العاطفة»[3] مؤكدًا أن الإقناع هو الغاية القصوى من البلاغة لا التزيين اللفظي.

أما في الدراسات المعاصرة، فقد قدّم محمد العمري تصورًا تداوليًا لمفهوم الحجاج، حيث عرفه بأنه «خطاب يُبنى على دعوى يُراد إثباتها أو دحضها، عبر إقامة الدليل، موجَّه إلى متلقٍ مفترض فيه القابلية للتأثر والاقتناع» [4] .

وبناءً على هذه التصورات، فإن الحجاج يتجلى بوصفه فعلاً بلاغيًا عميقًا يتجاوز الإقناع اللحظي ليشكّل آلية فكرية وجمالية تسعى لتكوين القناعة الراسخة، وتندمج فيه أدوات البلاغة التقليدية (كالاستفهام، والتقابل، والتكرار، والصورة) ضمن نسقٍ تواصلي يخاطب العقل والوجدان في آنٍ معًا.

2- العلاقة بين البلاغة والحِجاج:

تُبرز البلاغة بوصفها «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته»[5] جوهر العلاقة بينها وبين الحجاج، فالفعل البلاغي في جوهره لا يهدف إلى التزيين اللفظي، بل إلى التأثير والإقناع، وهما غايتان مركزيتان في الحِجاج.

لقد أدرك البلاغيون العرب هذه العلاقة مبكرًا، وإن لم يصوغوها بمصطلح «الحجاج» كما نعرفه اليوم، فابن الأثير مثلًا، شدد على أن البلاغة ليست مجرد حُسن صياغة، بل «استدراج الخصم إلى الإذعان»[6] وهو تعبير يكشف عن الطبيعة الحجاجية للفعل البلاغي، كذلك رأى الجاحظ «أن البيان لا يُستخدم للزينة، بل لتأسيس المعنى وكشف الحق»[7].

وفي ضوء هذا الترابط، يمكن اعتبار الحجاج تجسيدًا وظيفيًا للبلاغة، حيث تندمج الأدوات البلاغية (كالاستعارة، والتقابل، والتكرار...) في خدمة بناء الحجة. فليست البلاغة هنا مجرد زخرفة، بل تقنية خطابية وظيفتها حمل المتلقي على التصديق.

هذا ما أكدته أيضًا الدراسات الحديثة، خاصة ضمن ما يُعرف بـ«البلاغة الجديدة» مع بيرلمان ولوكسيك، حيث يتداخل الحجاج مع البلاغة بوصفه مكوّنًا أساسيًا لها «فالحجاج وفق هذا التصور، ليس منطقًا صوريًا جامدًا، بل فعلًا تواصليًا يسعى إلى بناء قناعة في ذهن المتلقي، مستعينًا بأدوات بلاغية وتداولية في آن واحد»[8] .

وقد أشار عبد الله صولة إلى أن «البلاغة العربية وإن لم تستخدم مصطلح الحجاج صراحة، إلا أنها مارسته فعليًا في تحليل الخطاب، خاصة في النصوص الجدلية كالنص القرآني، ما يدل على تكامل ضمني بين البلاغة والحِجاج» [9].

وبذلك، فإن العلاقة بين البلاغة والحِجاج علاقة تكاملية لا وظيفية فقط؛ فالحجاج يُفعّل

(3) ينظر: المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت، ط1، 1420هـ، ج2،ص64.
(4) ينظر: ينظر: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، محمد العمري، مكتبة الأدب المغربي، إفريقيا الشرق، ط2، 2012، ص85.
(5) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الجبل- بيروت، ط3، دون تاريخ، ج1، ص44.
(6) ينظر: المثل السائر، ابن الأثير، ج2،ص64.
(7) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ، ص83.
(8) Perelman & Olbrechts-Tyteca, 1969, p4.
(9) ينظر: الحجاج في القران الكريم من أهم خصائصه وأسلوبه، عبدالله صوله، كلية الأداب والفنون والأنسانيات- جمهورية تونس، ط1، 2001. ص54.

البلاغة بوصفها أداة تأثير، فيما تمنح البلاغة الحِجاج بعدًا جماليًا ومعنويًا يُعمّق أثره في المتلقي.

3- استراتيجيات موسى عليه السلام في الحِجاج:

يبدأ خطاب موسى عليه السلام في سورة طه متّسمًا بالتواضع والتوكّل على الله، ومبنيًا على طلب الإفهام لا المجابهة في أولى مراحله، قبل مواجهة فرعون، نجد دعاء موسى عليه السلام الشهير في قوله تعالى:﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي • وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي • يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾[10] يتّضح من هذا الافتتاح أن موسى يُدرك صعوبة المهمة، لذا يُقدّم على المواجهة بدعاءٍ بلاغي يحمل التدرج الطباقي في الطلب: الشرح، ثم التيسير، ثم إزالة العائق، ثم تحقّق الفهم وهذا يُعبّر عن أدب الخطاب مع الله أولاً، وعن طبيعة الحِجاج الصادق الذي يُهيئ نفسه بالكلمة الطيبة لا السيف وقد علّق ابن عاشور على ترتيب هذا الدعاء قائلاً: «رتّب موسى دعاءه بحسب ما يقتضيه المقام، فبدأ بتوسعة صدره ليستقبل المهمة، ثم تيسير الأمر، ثم تسهيل البيان، لأن الحِجاج لا يتم إلا بالفهم"[11]

ومن أبرز استراتيجيات موسى عليه السلام في الحجاج: استراتيجية البرهان الحسي المعجز، حيث انتقل بحجته من نطاق القول

المجرد إلى المشهد العملي المحسوس، الذي يعاينه الخصم بعينه فلا يسعه إلا الإذعان. وقد تجلى ذلك حين ألقى عصاه بأمر الله فتحولت إلى حية تسعى، في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾[12] وقد فسَّر الآلوسي هذا التحول الحسي المعجز بقوله: "والتعبير بـ حَيَّةٌ يوهم السرعة في الحركة، لتكون أدهى في التأثير وأقوى في إدخال الرعب، وهذا مما يزيد الحجة ظهورًا؛ لأنها لم تكن صورةً فقط، بل حياةً وسعياً» وأوضح أن المعجزة جاءت بأسلوب مباشر لا يحتمل التأويل، مما يدل على أن هذا التحول كان حقيقياً، لا سحرياً، فكان من أعظم الأدلة على صدق رسالة موسى عليه السلام.

يتسم خطاب موسى عليه السلام في سورة طه بتدرج بلاغي مدروس يُراعي مقتضى الحال، ويعتمد مجموعة من الاستراتيجيات الحجاجية التي تعكس عمق البناء البلاغي للنص القرآني. فقد بدأ الحوار باستراتيجية التمهيد اللغوي اللين كما في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[13]، وهذه البداية تكشف عن حوار هادئ يسعى إلى فتح باب التفاهم بعيدًا عن التصعيد، وهي خطوة بلاغية مقصودة تراعي طبيعة المخاطب ومقامه، وفسَّر ابن عاشور ذلك بقوله: «إن القول الليّن: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض والاستدعاء، وهو أقرب إلى القبول وأبلغ في إصابة الغرض، خصوصًا في مقام الدعوة[14]"

ثم انتقل موسى إلى استراتيجية الإقناع العقلي الكوني، من خلال الاستدلال بالخلق والتدبير، فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[15]، وهي حجة عقلية تخاطب الذهن، وتُظهر عجز فرعون عن مواجهة هذا البرهان القائم على المشاهدة والفطرة، وقد وصف

(10) سورة طه، الآيتان 25-28.
(11) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية- تونس، 1984هـ ، ج16،ص210.
(12) سورة طه، الآية 20.
(13) سورة طه، الآية 44.
(14) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور،ج16، ص224.
(15) سورة طه، الآية 50.

الزمخشري هذا الأسلوب بقوله: «هذا جواب من أخصر الأجوبة وأجمعها وأوضحها، جواب حكيم قائم على أصول البرهان العقلي، يتعذر دفعه"[16]وتتجلّى هنا براعة الحجاج القرآني في مخاطبة العقل بالحجج الكونية التي لا تملك النفس أمامها إنكارًا.

ثم تدرج الحجاج إلى مواجهة مباشرة مع فرعون، مع الإبقاء على لغة متزنة قائمة على استراتيجية التقابل المنطقي، كما في قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[17] فالرد هنا يُقابل سؤالًا استنكاريًا بجواب مُحكم يُظهر التوحيد في أبهى صوره. وهذا ما يشير إليه صلاح فضل بقوله: «إن الحجاج في القرآن الكريم لا يقوم على فرض السلطة وإنما على تفكيكها بلغة العقل والحق» [18].

وحين يُتهم موسى بأنه جاء بالسحر لإخراج القوم من أرضهم، لا يلجأ إلى الهجوم أو الدفاع، بل يتبنى أسلوبًا عقلانيًا متزنًا، فيطلب موعدًا منصفًا للمواجهة، قائلاً: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾، وهو اختيار ذكي يهدف إلى كشف الحق أمام الجماهير في وضح النهار. وعندما واجه موسى السحرة، لم يبدأ بالإلقاء بل ترك الخيار لهم، فقال: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[19]، وقد علق الرازي على هذا الموقف قائلاً: «في هذا تثبيت لموسى عليه السلام، ودليل على شجاعته ورباطة جأشه، وثقته بأن ما معه من الحق لا يحتاج إلى استعجال»[20].

ثم ينتقل موسى إلى فرعون برسالة مباشرة واضحة قال تعالى:﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[21] في هذا الموضع، يُلاحظ توظيف موسى عليه السلام للخطاب المشحون بالتوازن بين النداء بالحقيقة والدعوة إلى السلم؛ فهو لم يبدأ بالهجوم أو النفي، بل بـ«إنا رسولا ربك»، وهو تعبير بلاغي يُراد به الإقناع النفسي بأن فرعون نفسه مخاطَب من ربه، لا مُقصى عنه، كما أن النداء يتضمّن أسلوبًا تلطيفيًا من خلال النهي عن العذاب: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾، وهي طريقة تهدف إلى كسر حدة العناد باستثارة الرحمة، لا التحدي.

كما يُضمّن موسى خطابه بشبه تحية شرطية بلاغية في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ﴾، وهو أسلوب تقريري يربط بين السلام والهداية ربطًا سببيًا، مما يُحمّل فرعون تبعة اختياره وقد وصف الرازي هذا الموضع بأنه «تحية مضمّنة بالشرط العقلي، تدل على أن السلام لا يُنال إلا بالسير في طريق الحق [22]"

وهكذا، يتشكّل خطاب موسى في بدايته من عناصر بلاغية متينة: الوضوح، الأدب، الإقناع الهادئ والدعوة بالحكمة، إنه خطاب يقوم على الحجَاج العقلي قبل الدخول في نقاش حاد، مما يعكس طابع الرسالة النبوية التي تبدأ بالحجة لا بالهيمنة، وبالتبشير لا بالسخرية.

(16) ينظر: الكشاف، الزمخشري، دار الكتاب العربي-بيروت، ط3، 1407هـ، ج3، ص67.
(17) سورة طه، الآيتان 49-50.
(18) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني الكويت للثقافة والفنون والآداب، دار الشروق، ص: 180.
(19) سورة طه، الآية 65.
(20) التفسير الكبير ، الرازي، ج التفسير الكبير، الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط3، 1420ه، ج22، ص55.
(21) سورة طه، الآية 47.
(22) ينظر: التفسير الكبير، الرازي، - ج22، ص55.

4- استراتيجيات فرعون في الحِجاج:

في سياق الحجاج الذي يسرده القرآن الكريم في سورة طه، يُشكّل خطاب فرعون مع موسى عليه السلام أنموذجًا للخطاب السلطوي القائم على أساليب الإزاحة، التشكيك، والإرهاب النفسي، ويتسم هذا الخطاب بعدة خصائص بلاغية تُظهر عجزه أمام الحجة النبوية، وقد اتخذ فرعون من أدوات البلاغة وسيلةً لقلب الحقائق، مستخدمًا الاستفهام الإنكاري، والنفي، والإبهام، والتضليل، بما يتماشى مع بنيته السلطوية الاستعلائية.

في مفتتح حواره، يعتمد فرعون على الاستفهام الإنكاري التقريري حين يقول: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾[23] يظهر هذا السؤال في ظاهره طلبًا للتعريف، لكنه في حقيقته إنكار مبطن لوجود رب سوى فرعون نفسه، فيُراد به التشكيك لا الاستفهام الحقيقي، وقد وصف ابن عاشور هذا النوع من الخطاب بأنه «استفهام صوري يُراد به الإنكار، لا الاستفهام، لأن فرعون كان يدّعي الألوهية[24]"

ويستمر فرعون في إزاحة مركز الحجة عبر تشتيت المقام الحواري، كما في قوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾[25] فهو لا يرد على الجواب التوحيدي الذي قدّمه موسى في قوله:﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[26]، بل يحاول صرف الانتباه إلى قضية جانبية، هذا ما يُعرَف في البلاغة بأسلوب صرف النظر أو الإزاحة الحجاجية، التي تُستخدم عند العجز عن تفنيد الحجة الأصلية، وقد بيّن الزركشي أن «من وسائل الخطاب التضليلي صرف الحجة عن سياقها بسؤال مشوّش، يوهم ضعف الخصم بينما الضعف في السؤال ذاته[27] "

وحين ظهرت له آيات موسى، لم يتفاعل معها بإنصاف أو تفكر، بل لجأ إلى التكذيب والإباء، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ وهي صيغة قرآنية مختصرة تُظهر أن الموقف لم يكن مبنيًا على عقل أو نظر، بل على عناد مقصود، ثم انتقل إلى خطاب يُخاطب فيه الجمهور لا الخصم، ساعيًا لتشويه صورة موسى أمام قومه، فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[28] وهي محاولة لتأليب الرأي العام ضد موسى، مستخدمًا أسلوب التخويف السياسي الذي يربط الدعوة بالتخريب والتمرد، وقد أشار الزمخشري إلى هذا الأسلوب بقوله: «هو أسلوب من يُريد إلقاء الرعب في الناس، لا إقامة الحجة عليهم»[29].

ثم لجأ إلى ما يُشبه المناورة والمراوغة، فعرض التحدي قائلًا: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[30] وهو أسلوب يُساوي بين المعجزة والسحر، ويُحاول نزع قداستها بإدخالها في نطاق الخدع، وهو ضرب من التسوية المغرضة بين المختلفين، وقد نبه الطبري إلى أن هذه الخطوة من فرعون كانت تهربًا من الاعتراف بالآية الإلهية، فاختار تحديًا صورته سحرية ليحتفظ بسطوته أمام الجمهور»[31] (جامع البيان، طه:58).

(23) سورة طه، الآية 49.
(24) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج16، ص214.
(25) سورة طه، الآية 51.
(26) سورة طه، الآية 50.
(27) ينظر: البرهان في علوم القران، الزركشي، تحقيق محمد أبو فضل، ط1، 1376هـ ، ج2، ص311.
(28) سورة طه، الآية 57.
(29) الكشاف، الزمخشري، ج4، ص 232.
(30) سورة طه، الآية 58.
(31) جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1422هـ، ج16، ص 315

ثم تتصاعد النبرة السلطوية في خطاب فرعون حين يُواجه إيمان السحرة، فيقول: ﴿ءَامَنتُم لَهُۥ قَبلَ أَن ءَاذَنَ لَكُم﴾[32] هنا تظهر ذروة الخطاب الفرعوني الاستبدادي، حيث يجعل الإيمان نفسه مشروطًا بإذنه، في مصادرة تامة لحرية الاعتقاد، وهذا الأسلوب يعتمد على المبالغة في التوكيد والسيطرة، مستخدمًا أدوات بلاغية مثل التقديم والتأخير، والزجر، وقد وصف الرازي هذا الأسلوب بقوله: «هو خطاب لا يتوجّه إلى الرد، بل للردع، فيه نفي للحق لا بالحجة، بل بالتهديد [33]".

ويُتابع فرعون تسويغ هزيمته أمام المعجزة باستخدام أسلوب قلب الدلالة، حين يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحرَ﴾[34] حيث يحاول تحويل المعجزة إلى مؤامرة، وهنا يستخدم أسلوب الإيهام والتضليل البلاغي، وهو من فنون المغالطة، حيث يتم تفسير الحدث الجلي تفسيرًا زائفًا بهدف كسر أثره في النفوس، وقد أشار السيوطي إلى هذا النوع من الأساليب قائلاً: «هذا من فنون البلاغة الماكرة، حيث يُستبدل تفسير الحقيقة بتأويل ملفق يُناسب هوى المتكلم [35]".

كما يستثمر فرعون التهديد اللفظي المصاغ بصيغة توكيدية متعاقبة قال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[36] حيث يتكرر الحرف المشدد (اللام والنون) في «لأقطعن»، «لأصلبن» بما يعكس شدة الانفعال والبطش. وهذا التوكيد التتابعي يخدم غرضًا نفسيًا في الترهيب، في غياب الحجة المنطقية. وقد فصّل ابن هشام في هذا الأسلوب قائلاً: «تكرار أدوات التوكيد في موضع التهديد لا يفيد اليقين فقط، بل يُستثمر لتوليد الرعب اللفظي [37]".

بهذا يتضح أن خطاب فرعون لم يكن متماسكًا منطقًا، لكنه كان متنوعًا أسلوبيًا، يوظف أدوات البلاغة في قلب الموازين الحجاجية، والالتفاف على المعجزة، وتثبيت صورته بوصفه المرجع الأعلى، بينما كان عجزه في مقابل حجة موسى عليه السلام يتجلى في اضطرابه الخطابي، وتناقضه الداخلي، وتحوله من المجادلة إلى العنف.

5- استراتيجيات موسى مع السحرة:

عندما واجه موسى عليه السلام السحرة في محفل فرعون، تميز أسلوبه البلاغي بالحكمة والرَّشاد، محاطًا بخطط حجاجية تهدف إلى توجيههم إلى الحق وإبطال سحرهم، ففي البداية عندما اقترب السَّحرة من موسى واتهموه بالسحر، كما في قولهم:

﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾[38] وذلك في محاولة منهم لتشويه دعوتهما وإقناع الناس بعدم اتباعهما، كما أشار الإمام الطبري إلى أن هذا القول كان بهدف "صرف الناس عن دينهم وتثبيتهم على باطلهم"[39] وذكر القرطبي أن السحرة حين

(32) سورة طه، الآية 71.
(33) ينظر: التفسير الكبير، الرازي، ج22،ص118.
(34) سورة طه، الآية71.
(35) ينظر: الاتقان في علوم القران،، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ ج2، ص180.
(36) سورة طه، الاية71.
(37) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق: د:مازن المبارك و محمد علي حمدالله، دار الفكر- دمشق،ط6، 1985ج1، ص201.
(38) سورة طه، الآية 63.
(39) ينظر: جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، ج16، ص 315.

رأوا المعجزة، تشاوروا وقال بعضهم لبعض هذا القول من باب التهويل على الناس وإقناعهم بخطر موسى وهارون» [40] وقد كان ردّ موسى عليه السلام في غاية البلاغة والاقتدار، حيث واجههم بقوله ﴿ قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾[41].

وهنا تتجلى فصاحة موسى عليه السلام، حيث بدأ بتحذير عقلاني أخلاقي، وليس بردّ مباشر عنيف، يقول ابن كثير «إن موسى بدأ نصحه لهم بتحذير رقيق، يُنذرهم من الكذب على الله وادعاء أن سحرهم وحيٌ أو معجزة إلهية»[42] أما الإمام الرازيّ فقد أبرز بلاغة موسى بقوله: «بدأ بالحجة الأخلاقية، ثم ختم بالنتيجة العقلية: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي يهلككم الله، وهو بذلك يخاطبهم بمنهج حجاجي متزن يجمع بين العقل والوجدان»[43] ويؤكد الطنطاوي «أن هذا الردّ من موسى يُعدّ نموذجًا راقيًا في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فهو لم يهاجمهم مباشرة، بل خاطبهم بأسلوب نصحي تحذيري، مع تأكيد واضح أن السحر ليس إلا خداعًا زائلًا أمام قوة الله الحقيقية وجملة :وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ معترضة لتقرير وتأكيد ماقبلها»[44].

ثم في مواجهة السحر الذي طرحه السحرة، كان موسى عليه السلام يتحرك بثقة مستمدة من يقينه بالله، وعندما ألقى السحرة عصيهم وحبالهم، كانت المفاجأة الكبرى حينما تحولت العصا إلى حية عظيمة، فاستفاق السحرة ووقعوا في السجود قائلين: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾[45]هنا، يظهر موسى عليه السلام استراتيجيات بلاغية أخرى في حواره معهم، حيث استفاد من لحظة المعجزة ليُثبت لهم الحقيقة التي لا مفر منها، هذا التفاعل بين السحرة و المعجزة يشير إلى أن موسى عليه السلام كان يستخدم المعجزة كأداة توجيهية لاستخدام العقل البشري لتقبل الهداية، فالسحرة الذين كانوا في البداية في خصومة، تحولوا فجأة إلى مؤمنين بسبب البرهان الإلهي الواضح، وهذا يعكس كيف استخدم موسى الحوار القائم على إثبات الحقائق بطريقة عقلانية، التي تفتح المجال أمام المتلقي للقبول به.

ورغم أن المعركة الظاهرة قد انتهت لصالح موسى عليه السلام، إلا أن الخطاب البلاغي لم يتوقف، بل استمر في تثبيت السحرة وتطمينهم بعد إيمانهم، فقد قال الله له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[46] وهي آية تحمل في مضمونها طمأنينة عميقة، فيه تعزيز للثقة وثناء على الاختيار، إذ يُبرز أن الغلبة ليست في اليد ولا السلطان، بل في كلمة الحق ومقام الإيمان، وهو خطاب ينهض على رفد المتلقي بالقوة النفسية والمعنوية ليظل ثابتًا أمام التهديد، وهو ما حدث فعلًا، إذ ثبت السحرة أمام وعيد فرعون وأصرّوا على موقفهم الإيماني بكل جرأة ويقين، وقد ورد في تفسير المراغي أن هذا التعزيز يمثل «رد تضامن للثقة والقوة بعد لحظة الانتصار"[47].

ويُلاحظ أن موسى عليه السلام لم يعتمد في خطابه مع السحرة على تحدٍّ فجّ أو انتصار

(40) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ج11، ص219.
(41) سورة طه، الآية 61.
(42) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ، ج5، ص301.
(43) التفسير الكبير، الرازي، ج22، ص65.
(44) ينظر: التفسير الوسيط للقران الكريم، الطنطاوي، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ج9، ص121.
(45) سورة طه: 70.
(46) سورة طه، الآية 68.
(47) تفسير المراغي، المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1365هـ، ج16، ص 316.

آني، بل على بناء متكامل من الحوار والدعوة بالحسنى، واستثمار لحظة الإدراك العقلي في لحظة المعجزة. فقد تعامل معهم بوصفهم أهل صنعة يعرفون الفرق بين الخداع والحقيقة، ولهذا لم يُهاجمهم مباشرة، بل مهّد للحقيقة بحجج أخلاقية وعقلية ومعجزية تهيئ لهم الاختيار الحر، بعيدًا عن الانفعال أو الإكراه، وهو ما جعل تحولهم يُمثّل لحظة بلاغية كبرى في مشهد السورة. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا التحول بقوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[48]هي آية تدل على أن سجودهم جاء تلقائيًا ومباشرًا لحظة وقوع المعجزة، مما يشير إلى أن الإيمان كان وليد اقتناع داخليّ نابع من بصيرة لا من رهبة. وقد علّق الإمام الرازي على ذلك بقوله: «إنهم لما كانوا أعرفَ الناس بالسحر، علموا أن ما فعل موسى عليه السلام لا يدخل تحت قدرة البشر، ولا هو من جنس صنعتهم، فآمنوا فورًا»[49]أشار ابن عاشور إلى أن هذا السجود كان «سجود طاعة وإيمان، لا مجرد انبهار، لأنهم أهل اختصاص يعلمون حقيقة الفرق بين السحر والمعجزة»[50].

وفي ختام هذا التحليل لاستراتيجيات الحجاج، تتضح معالم البناء البلاغي في سورة طه من خلال ثلاثة أنماط متقابلة، تعكس تباينًا دقيقًا في وظائف الخطاب، فخطاب موسى يستند إلى (حِجاج الإقناع القيمي) الذي يجمع بين المعجزة والدعوة، ويخاطب الفطرة قبل العقل؛ حيث إن «بلاغة موسى تتوسل بالبرهان لا لترهيب الخصم، بل لاستنقاذ العقل من غواية السلطة»[51]

في المقابل، يقوم خطاب فرعون على (حِجاج الإخضاع)، إذ يُستبدل المنطق بالهيمنة الرمزية، ويُعاد تشكيل المقام الحواري لتصنيع قبول جماهيري قائم على الرهبة؛ وهو ما يُجسده وصف «الخطاب السلطوي الموجّه لتصنيع القبول الجماهيري عبر التكرار والتهديد».[52]

أما السحرة، فإن لحظة تحولهم تشكّل ذروة البلاغة الحجاجية من جهة المتلقي؛ حيث «تُعدّ بلاغة الانقلاب في موقفهم من أبلغ صور التلقي الفاعل، إذ يتم التبديل من موقع الحِجاج ضدّ موسى إلى الانتصار الكامل لبرهانه بمجرد تذوق الحقيقة».[53]

ومن ثمّ، فإن البلاغة القرآنية هنا لا تقدم الحِجاج بوصفه مجرّد جدل، بل كبنية تواصلية تستهدف تحرير الإدراك، وتفعيل الوعي، وتوجيه النفس نحو الحق، بعيدًا عن التسلط والإكراه، فهو حِجاج ينهض على التبيين لا على التهويل، وعلى الاستجابة الحرّة لا على الخضوع.

5-البنية البلاغية للقصة في سورة طه: الفاصلة والإيقاع والصورة ودورها في الحجاج.

تُعد قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة في سورة طه نموذجًا فنيًا مكتمل الأركان في البلاغة القرآنية؛ حيث تتكامل فيها الأدوات البلاغية من فاصلة وإيقاع وصور بيانية لتشكّل نسيجًا حجاجيًا عميق التأثير، ويتسم هذا البناء البلاغي بتناسق دلالي وصوتي ومعنوي يجعل النص القرآني يحقق غايته الإقناعية والتأثيرية بصورة بالغة الفاعلية.

(48) سورة طه، الآية 70.
(49) التفسير الكبير، الرازي، ج22، ص64.
(50) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج16، ص221.
(51) ينظر: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، محمد العمري، ص97.
(52) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص188.
(53) ينظر: في ظلال القران، سيد قطب، دار الشروق-بيروت- القاهرة،ط1412،17هـ، ج4، ص2344.

1-5- الإيقاع:

الإيقاع في سورة طه، حيث يواجه موسى عليه السلام فرعون، وتحدث المواجهة الكبرى بين الحق والباطل، نرى أن القرآن الكريم يتفرد باستخدام أساليب بلاغية فائقة لإبراز التوتر النفسي، والتحولات الحاسمة في المواقف، فضلاً عن إظهار قوة الحجة، الإيقاع الصوتي، الذي يُعتبر أحد أبرز الأدوات البلاغية، يُستخدم في هذه السورة لتعزيز المعاني وتوجيه التأثير النفسي للمستمع، يُظهر الإيقاع الصوتي في العديد من الآيات بين موسى وفرعون والسحرة كيف يمكن للقرآن الكريم أن يُوظف هذه الأداة ليس فقط للتأثير في الأذن، ولكن أيضًا في تعميق الفهم والتمثيل النفسي للمواقف.

عندما جاء موسى عليه السلام إلى فرعون، كان في قلبه خوف عميق مما قد يحدث، وهذه الحالة النفسية تُعبّر عنها الآية: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [54] في هذه الآية، نرى كيف أن الإيقاع الصوتي يأتي ليواكب انفعال موسى عليه السلام الداخلي، حيث تُكرر الحروف الساكنة في «أوجس» و«خيفة»، وهو ما يعكس الخوف والرهبة التي كانت تساوره، هذه الألفاظ تحمل طابعًا صوتيًا يعكس القلق والاضطراب النفسي، وكأن الصوت نفسه يتردد داخل النفس، في محاكاة دقيقة للحالة الذهنية التي مر بها موسى، ما يعزز من عمق الحجاج القرآني هنا.

ثم يحدث التحول المفاجئ في الموقف الحجاجي عندما يظهر السحرة وهم يستجيبون لمعجزة موسى عليه السلام، فبعد أن ألقى السحرة عصيهم وحبالهم ليظهروا قواهم السحرية، جاء الفعل الإلهي المذهل، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾[55] استخدام الفعل المبني للمجهول «فُألقي» يُعزز من عنصر المفاجأة والإثارة، الفعل المبنى للمجهول، يعكس المدهشة التي لحقت بالسحرة وكيف أن المعجزة الإلهية أذهلتهم وأجبرتهم على السجود في لحظة غير متوقعة، هذا الفعل يثير شعورًا بالدهشة، ويُحدث نقلة نوعية في التوتر الحجاجي، حيث ينتقل السحرة من خصوم إلى مؤمنين في لحظة واحدة.

بعد هذه اللحظة الحاسمة، ينتقل القرآن إلى حالة من الطمأنينة لموسى عليه السلام عندما قال الله له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[56] في هذه الآية، نرى توجيهًا إلهيًا مباشرًا لموسى، ينقله من حالة الخوف والقلق إلى الطمأنينة واليقين، الإيقاع الصوتي في هذه الآية يُستخدم بكفاءة لإيصال هذا التحول النفسي، فالأصوات الرخوة في «لا تخف» تتكرر فيها الحروف الهادئة التي تُرسل إلى الأذن شعورًا بالراحة والسكينة، التوكيد بـ«إنك أنت» يعزز هذا الإحساس بالثقة المطلقة في قدرة الله، مما يُمثل تحولًا مهمًا في الموقف الحجاجي؛ حيث يتلقى موسى عليه السلام القوة الداخلية التي تؤهله لمواجهة التحدي.

وفي ختام مشهد المواجهة، تأتي الآية التي تمثل ذروة التصعيد الحجاجي، حيث يردّ السحرة على تهديد فرعون بقولهم: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[57] ، حيث تتسم هذه الآية بإيقاع قوي نابع من غلبة الحروف الجهرية والشديدة كالقاف (ق) والضاد (ض) والدال (د)، وهي حروف ذات صفات صوتية تبرز الحزم والثبات في الموقف، كما أن الفاصلة الصوتية في كلمة «الدنيا» تنتهي بمدٍّ خفيف بعد نون مشددة، فتمنح الجملة نغمة ختامية

(54) سورة طه، الآية 67.
(55) سورة طه، الآية 70.
(56) سورة طه، الآية 68.
(57) سورة طه، الآية 72.

حادة توحي بإغلاق تام للمجال الحجاجي، ويؤكد الرازي أن قولهم هذا يدل على «أنهم عرفوا أن فرعون لا يقدر إلا على أمور الدنيا، وأنهم زهدوا فيها، فصارت لا قيمة لها عندهم»[58].

إذاً من خلال هذا التحليل يمكننا ملاحظة كيف يساهم الإيقاع الصوتي في بناء الخطاب الحجاجي في قصة موسى وفرعون والسحرة، الإيقاع لا يُستخدم فقط لإضافة جمال صوتي، بل ليُعزز المعاني ويُعمق التأثير النفسي على السامع، وكما قال الزركشي «إن الفواصل القرآنية تؤدي دورًا موسيقيًا ومعنويًا يُغلق المعنى ويُهيئ الأذن للتلقي الكامل»[59] هذه الحقيقة تتجسد بوضوح في الآيات التي عرضناها، حيث يُسهم الإيقاع في تجسيد المشاعر الإنسانية ويدعم الحجة القرآنية ضد الباطل، ويُسلط الضوء على قوة الحق الذي لا يُغلب.

2-5-الفاصلة:

تُعدّ الفاصلة القرآنية من أبرز أدوات البلاغة الصوتية والدلالية في النص القرآني، لا سيما في المواضع الحجاجية، حيث تتكامل وظيفتها مع السياق النفسي والديني والجدلي للنص، وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة في سورة طه، تتجلى الفواصل كضرب من الإيقاع الحجاجي، الذي يُضبط به إيقاع النفس، ويُعمّق حضور الحجة في ذهن المتلقي، ويُبنى به نسق تعبيري مشدود يواكب حدة المواجهة.

في بداية الوحي إلى موسى، تأتي الفواصل القصيرة ذات الإيقاع السريع في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[60] تُختَم الجملة بفاصلة «هُدىً» ذات الإيقاع الخافت والمفتوح، كأنها تُمهد لمطلع النبوة، وتُهيئ النفس لتلقي الرسالة، وقد أشار الزركشي إلى هذا النوع من الفواصل بقوله: «الفاصلة القرآنية ليست مجرد سجع لفظي، بل هي توقيعات معنوية تُرتّب ختام المعنى، وتُهيئ النفس لما بعده [61]"

وعندما يشتدّ التوتر في المشهد ويصل موسى إلى لحظة المواجهة، تبدأ الفواصل تأخذ نَفَسًا أقصر وأكثر حدة، كما في قوله تعالى:﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[62] حيث تنتهي الآية بالفعل المضارع "تسعى"، وهي فاصلة تُغلق الجملة على صورة حركية مبهرة، تُجسد الفعل المعجز بديناميكية محسوسة، تنتهي الفاصلة بألف لينة تُحدث امتدادًا صوتيًا مفاجئًا بعد جملة قصيرة متسارعة الإيقاع، ختم ابن عاشور هذا النمط من الفواصل بأنه: «ختم تصويري للفعل المعجز، يزيد في وضوح الصورة، ويسند المعنى بالبنية الصوتية»[63].

ثم ننتقل إلى قول الله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[64]حيث تأتي الفاصلة «موسى» بهدوء بعد جملة مشحونة بالهمس والرهبة، الفاصلة هنا تُبطئ إيقاع الآية فجأة، كأنها التوقف العاطفي الذي يُترجم الخوف الداخلي، وقد نبه السيوطي إلى هذا الأثر الصوتي للفواصل بقوله: «تُحاكي الفواصل حركة النفس في مواقفها المختلفة، فيُبطئ حيث

(58) التفسير الكبير، الرازي، ج22، ص157.
(59) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج1، ص
(60) سورة طه، الآية 10.
(61) ينظر: البرهان في علوم القران، الزركشي، ج1،ص206.
(62) سورة طه، الآية 20.
(63) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج16، ص177.
(64) سورة طه، الآية 67.

يُوجب التروّي، ويُسرع حيث تشتد المواجهة [65]"

في لحظة الانقلاب الحجاجي، تأتي الفاصلة العالية النبرة في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾[66]، فتُغلق السياق الحجاجي بانقلاب دلاليٍّ مفاجئ، لفظ «سُجدًا» بصيغته الصوتية الحازمة واختتامه بالألف المفتوحة والنونً المنطوقة بوضوح يترك أثرًا إيقاعيًا يُعبّر عن السقوط الكامل للسحرة في خضوع مطلق، وكأن الفاصلة هنا تعمل بوصفها ضربةً ختامية قاطعة للحوار العقلي، وهذا ما عبّر عنه الرازي حين قال: «إن قصر الفاصلة وتحديدها بعد الفعل المبني للمجهول يُلقي في نفس السامع شعور الحسم والتمام[67]"

وهكذا تتشكل الفاصلة في هذه السورة ليس بوصفها عنصرًا زخرفيًا، بل كأداة بلاغية تؤدي وظيفة حجاجية وصوتية دقيقة، فهي تُحدد إيقاع الجمل، وتُقسّم الحجاج إلى وحدات شعورية، وتُعمق المشهد النفسي، وتُغلق الجدل في الوقت المناسب، ومن ثم، فإن الفاصلة تصبح جزءًا من الحجة ذاتها، لا مجرد نهايتها، فتُثبّت المعنى بالجرس كما تثبته بالدلالة، وهو ما يجعلها واحدة من أهم أدوات البلاغة الحجاجية في النص القرآني.

3-5-الصور البيانية:

يتجلّى الإعجاز البلاغي في قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة في سورة طه من خلال صور بيانية حيّة، تُخرج المتلقي من دائرة الفهم العقلي المجرد إلى فضاء المعايشة الحسية، حيث يوظّف النص القرآني أدوات التصوير البلاغي (كالاستعارة، والمجاز، والكناية) لترسيخ الحجة الإلهية وإظهار بطلان الخصم.

ومن أبرز هذه الصور ما ورد في لحظة تصاعد التوتر، حين يصوّر القرآن حال موسى عليه السلام في قوله:﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[68] في هذه العبارة استعارة مكنية، حيث شُبِّه الخوف بكائن مادي يتسلل إلى النفس، وأُبقي على «أوجس» كقرينة على هذا التخييل، وقد فصّل ابن عاشور ذلك بقوله:»الخيفة مصدر أضيف إلى النفس مبالغةً في إخفائها، وذلك يدل على أن موسى لم يُظهر خوفه، فكان في غاية الكتمان»[69].

ثم تتصاعد المشاهد حتى تبلغ الذروة في قوله:﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾[70] وهنا تظهر استعارة تصريحية قوية، حيث حُذف الفاعل الحقيقي، ورُكز على النتيجة الصادمة التي أفقدت السحرة إرادتهم فسجدوا، كأنّ قوّة خفية – من الحق أو الإيمان -هي التي ألقت بهم، وقد وصف الرازي هذا الأسلوب بقوله:»قُدِّم الفعل على الفاعل تفخيمًا وتعجيبًا، كأنهم ما سجدوا باختيارهم، بل أُلقي بهم إلى السجود إلقاءً»[71].

ويُتابع السياق بكناية بديعة في خطاب الطمأنينة:﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[72] فعبارة «أنت الأعلى» كناية عن الغلبة بالحجة والبيان، وقد جاءت في تركيب اسمي مؤكد ب»إنّ» وضمير

(65) الاتقان في علوم القران، السيوطي، ج2،ص143.
(66) سورة طه، الآية 70.
(67) ينظر: التفسير الكبير، الرازي، ج22، ص117.
(68) سورة طه، الآية67.
(69) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج16،ص240.
(70) سورة طه، الآية 70.
(71) ينظر: التفسير الكبير، الرازي، ج22، ص116.
(72) سورة طه، الآية 68.

الفصل «أنت»، ما يعزز المعنى النفسي للثقة، ويُرسّخ الاطمئنان. وقد أشار التفتازاني إلى أهمية هذا البناء بقوله:»التوكيد بالجملة الاسمية والضمائر المنفصلة يرسّخ المعنى في القلب ويمنع التردد والاضطراب»[73].

وفي مشهد المواجهة، تستخدم الاستعارة المكنية والمجاز العقلي في قوله تعالى:﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[74] فالآية تصور السحر كأنه كائن يُخيِّل للناس، وهي استعارة مكنية تقوم على الإيهام والوهم. كما أن نسبة السعي إلى الحبال والعصي مجاز عقلي، لأن الحركة لم تصدر عنها في الحقيقة، وقد علّق الزمخشري على ذلك بقوله:»يخيّل إليه: من سحرهم وتخييلهم، أي يخطر له في وهمه أنها تسعى»[75]، ويضيف الزركشي: «ومن المجاز أن يُسند الفعل إلى غير ما هو له، نحو ﴿يُخيّل إليه﴾ والحقيقة أن الفعل للساحر لا للحبال»[76]، لكن حين تأتي لحظة الحسم، يتجلّى التفوّق الإلهي في صورة بيانية معكوسة، في قوله:﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾[77] فالآية تصور المعجزة في هيئة حية ذات قدرة تلتهم الزيف، بما يعكس المفارقة بين الخداع والوحي، ويجعل الصورة البيانية أداة لإظهار سلطان الحق وحسم الجدل لصالح موسى عليه السلام.

وهكذا، فإن هذه الصور البلاغية المتنوّعة - من استعارات وكنايات ومجازات-لا تخدم الناحية الجمالية فحسب، بل تترابط لتشكّل بُنية حجاجية قوية، تُجسّد المعنى، وتؤسس لحقيقة أن سلطان الحق لا يُقهر.

4-5- **التكرار:**

يشكّل التكرار في قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة في **سورة طه** مكونًا بلاغيًا محوريًا يُعزز البنية الحجاجية للنص القرآني، ويمنحه طابعًا إيقاعيًا وتصعيديًا يتناسب مع طبيعة المواجهة بين الحق والباطل. ولا يقتصر التكرار هنا على إعادة اللفظ، بل يتجاوز ذلك إلى كونه أداة فنية تُستخدم لتوكيد المعنى، وترسيخ الفكرة، وتهيئة المتلقي للتلقي النفسي والمعرفي.

ومن أبرز صيغ التكرار في السورة تكرار فعل القول، ولا سيما بصيغة: ﴿قَالَ﴾، التي تكررت في أكثر من عشرين موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾[78] وقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[79] هذا التكرار لا يؤدي وظيفة سردية فحسب، بل يُسهم في إبراز الطابع الجدلي للمشهد وتصعيد الحوار بين موسى وفرعون، مع منح الإيقاع نبرة تُعبر عن التوتر وتدرج الأحداث. وقد نبّه الزركشي إلى هذه الظاهرة، مبينًا أن: "التكرار في المحاورات القرآنية يُستخدم لتثبيت الحجة وكشف اضطراب الخصم، لا لمجرد الإعادة اللفظية»[80]

كما يتجلى التكرار في تكرار النهي عن الخوف، في لحظة بلغت فيها المواجهة ذروتها. فبعد

(73) شرح التلخيص، التفتازاني، دار الكتب العلمية بيروت، ط4، 1412هـ، ص228.
(74) سورة طه، الآية 66.
(75) ينظر: الكشاف، الزمخشري،ج3، ص390.
(76) ينظر: البرهان في علوم القران، الزركشي، ج3، ص16.
(77) سورة طه، الآية 69.
(78) سورة طه، الآية 49.
(79) سورة طه، الآية 50.
(80) ينظر: البرهان في علوم القران، الزركشي، ج2، ص278.

أن عبّر القرآن عن الخوف الكامن في نفس موسى بقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[81] ، يأتي التثبيت الإلهي الفوري في قوله تعالى:﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾[82]ويعلّق ابن عاشور على هذا الأسلوب بقوله في تقديم نفي الخوف وتكراره توكيد لمعنى الطمأنينة، وإشارة إلى قوة المعجزة التي ستبطل كل تخييل باطل»[83].

وإشارة إلى قوة المعجزة التي ستبطل كل تخييل باطل وتتضح عبقرية التكرار كذلك في توالي فعل «ألقى" ضمن المشهد البياني للمواجهة، حيث ورد ثلاث مرات في تسلسل درامي متصاعد في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[84] وفي قوله تعالى:﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ...﴾ [85] وقوله تعالى:﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾[86] هذا التكرار الثلاثي يُظهر تدرّجًا معنويًا وبنائيًا دقيقًا: فالإلقاء الأول رباني يدل على المعجزة، والثاني بشري خادع يعكس زيف السحر، والثالث إيماني يدل على التحول العميق في الوعي واليقين، وقد أشار الفخر الرازي إلى هذا التصاعد بقوله ": التكرار هنا ترتيب معنوي يُبرز التحول الفكري عبر صور متتالية ترتبط بالفعل الواحد»[87] وأكد الزركشي على قيمة هذا النمط من التكرار في البناء البلاغي بقوله: « التكرار في القرآن لا يأتي عبثاً، بل يأتي لأجل تقوية المعنى وتثبيته، وإبرازه بصورة أوقع في النفس» [88]

وهكذا، يُقدَّم التكرار في **سورة طه** كأداة بلاغية تجمع بين الوظيفة الحجاجية والتأثير النفسي والإيقاعي، مما يمنح السورة بنية متماسكة تعبّر عن مراحل الصراع وتحوّلاته بمنتهى الدقة والعمق.

5-5التقابل:

يُعدّ التقابل من أبرز الظواهر البلاغية التي يُبنى عليها الحجاج في سورة **طه**، خاصة في قصة موسى مع فرعون والسحرة، إذ يشكّل هذا الأسلوب عنصرًا دلاليًا فاعلًا يُبرز التضاد بين المواقف والأفعال والنتائج، ويُعمّق المعنى من خلال المقارنة بين طرفي الصراع: الحق والباطل، الإيمان والكفر، الهدى والضلال.

في قول فرعون: ﴿ءَامَنتُم لَهُۥ قَبلَ أَن ءَاذَنَ لَكُم﴾[89] يقابل فرعون الإيمان بالطاعة له، وكأنه يضع نفسه موضع الإله الذي لا يجوز لأحد أن يتخذ قرارًا من دون وفي المقابل، تأتي صيغة السحرة في إعلان الإيمان: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[90] في تقابل دقيق مع مزاعم فرعون الربوبية. فبين «آمنتُم له» و«آمنا بربّ» تقابل بياني عقائدي يُظهر تصدع السلطة الفرعونية. وقد أشار ابن عاشور إلى هذا بقوله: «القصة تسير في بنية تقابلية تُظهر التناقض بين خضوع السحرة في أول الأمر لأمر فرعون، ثم خضوعهم لحقيقة الإيمان، فكأننا أمام قلب جذري يُبرزه

(81) سورة طه، الآية 67.
(82) سورة طه، الآية 68.
(83) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج16، ص210.
(84) سورة طه، الآية 20.
(85) سورة طه، الآية 66.
(86) سورة طه، الآية 70.
(87) ينظر: التفسير الكبير، الرازي، ج22، ص164.
(88) ينظر: البرهان في علوم القران، الزركشي، ج 11، ص308
(89) سورة طه، الآية 71.
(90) سورة طه، الآية 70

التقابل البياني[91]

وفي آية أخرى، يُبرز النص تقابلًا واضحًا بين حال موسى قبل المعجزة وبعدها، فعندما أُوهم بأن الحبال والعصي تسعى، يصف القرآن حاله ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[92] ثم يأتي الرد الإلهي المباشر المقابل ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾[93] هذا التقابل بين الخوف البشري والطمأنينة الإلهية يُجسّد قدرة الخطاب القرآني على الموازنة النفسية داخل الحجاج، ويُظهر أن الثقة بالحق تُقابل الخوف من الباطل، لكنها في لحظة الإيمان تتغلّب عليه، وعلّق الرازي على هذا بقوله: «الآية تُظهر أن الخوف من طبيعة الإنسان، والعلو من وعد الله، فتقابل الحالين يرسّخ الاعتماد على وعد الله لا على شعور النفس»[94] (

كما يتكرر التقابل في صياغة العاقبة، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[95] في مقابل من آمن واتبع الهدى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[96] هنا يظهر تقابل شرط الشرط والعاقبة: من اتبع فلا يضل، ومن أعرض فعليه الضنك، وتُبرز هذه البنية التقابلية الاختيار الواضح بين سبيلين: أحدهما يقود إلى الهدى والسعادة، والثاني إلى الضلال والشقاء، ويصف الزركشي هذا النمط بقوله: «من خصائص البيان القرآني أنه يجعل المعنى مضاعفًا حين يُقابَل بضده، فالتقابل يُحكم التصوير ويُظهر البون بين الحق والباطل» [97]

وتبلغ المقابلة قمتها في مشهد المواجهة الحاسمة، حين يُظهر فرعون تهديده المادي: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [98] فتأتي الاستجابة الإيمانية من السحرة: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[99] هذا التقابل بين التهديد الأرضي والثبات الأخروي يُشكّل حجة وجدانية وروحية تفضح هشاشة الباطل، فبينما يعتمد فرعون على التعذيب الدنيوي، يتمسك المؤمنون بالجزاء الأخروي، وقد فسّر ابن عاشور هذا الموقف بأن «المؤمنين لم يهابوا التهديد الدنيوي، لأن الإيمان غيّر من مركز الخوف فيهم، فصار الخوف من الله أعظم من بطش فرعون"[100].

إن التقابل في هذه السورة لا يُستخدم لمجرد التنويع الأسلوبي، بل هو بنية حجاجية قائمة على التضاد، تُظهر الحق بجعل الباطل في مرآته، وتُعزّز المعنى بالمقارنة المباشرة، فتصبح المواجهة بين موسى وفرعون والسحرة ميدانًا بلاغيًا تُعرض فيه القيم المتناقضة بأوضح صورة.

الخاتمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق، وجعل فيه شفاءً لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(91) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج16، ص217.
(92) سورة طه، الآية 67.
(93) سورة طه، الآية 68.
(94) ينظر: التفسير الكبير، الرازي، ج22، ص116.
(95) سورة طه، الآية 124.
(96) سورة طه، الآية 123
(97) ينظر: البرهان في علوم القران، الزركشي، ج 22
(98) سورة طه، الآية 71.
(99) سورة طه، الآية 72.
(100) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج16، ص267، ينظر: في ظلال القران، سيد قطب، ج4، ص2343.

في ختام هذا البحث، الذي تناول بالتحليل البلاغي والنقدي مشاهد الحجاج في سورة طه، وتحديدًا في قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة، تبرز ملامح الخطاب القرآني بوصفه خطابًا تواصليًا حجاجيًا محكمًا، يقوم على التدرج في عرض الحجة، وتوظيف الأدوات البلاغية لتحقيق التأثير العقلي والوجداني.

لقد كشف البحث عن أن الحجاج في القرآن لا يُقدَّم كجدل نظري أو صراع بياني فحسب، بل هو بناء معرفي وروحي قائم على التبيين لا على الإكراه، وعلى تحرير الوعي لا إخضاعه، وقد برز هذا المعنى جليًا في خطاب موسى عليه السلام الذي اعتمد على استراتيجيات بلاغية متنوّعة، مثل الإقناع العقلي، والتحذير الوجداني، والمعجزة الحسيّة، ما جعله نموذجًا للخطاب النبوي المتوازن، في المقابل اتّضح أن خطاب فرعون كان سلطويًا في جوهره، يعتمد على التهديد، والتشكيك، والإزاحة، ويُغيّب الحجة لصالح السيطرة الرمزية، وهو ما يكشف عن تهافت المنطق أمام المعجزة، أما السحرة، فقد شكّل موقفهم تحوّلًا بلاغيًا مهمًا، إذ مثّلوا النموذج الأمثل للمتلقي الذي انتقل من الشك إلى الإيمان، تحت وقع البيان الرباني.

وقد بين البحث أن الأدوات البلاغية كالاستفهام، والنفي، والتكرار، والتقابل، والصورة البيانية، والفاصلة، والإيقاع، كلها أدوات حجاجية ذات وظائف متعددة، لا تقف عند الجمال التعبيري، بل تؤسس للحجة وتدعمها في سياق المقام والسامع، مما يعكس فاعلية الخطاب القرآني في تشكيل الوعي وبناء القناعة.

إن بلاغة الحجاج في سورة طه تُقدّم للدارس البلاغي نموذجًا عاليًا لتكامل البيان مع البرهان، ولتجسيد التفاعل بين المتكلم والمتلقي، في ضوء سياق قرآني غني بالدلالة، دقيق في الأداء، عميق في الرسالة.

ونسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا للدارسين، وأن تكون مساهمة في إحياء البلاغة القرآنية بوصفها خطابًا حضاريًا وإنسانيًا خالدًا.

المصادر والمراجع:

القران الكريم برواية حفص.

1. Perelman, Chaim, and Olbrechts-Tyteca, Lucie. The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation. University of Notre Dame Press, 1969.
2. الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ.
3. أساليب بلاغية الفصاحة البلاغة المعاني، أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات شارع الفهد سالم -الكويت ط1، 1980
4. أسرار البلاغة، الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، دون طبعة ، دون تاريخ..
5. الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الجبل- بيروت، ط3،دون تاريخ.
6. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق محمد أبو فضل، ط1، 1376هـ.
7. البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، محمد العمري، مكتبة الأدب المغربي، دار إفريقيا الشرق،

2012

8. بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني الكويت للتقافة والفنون والآداب، دار الشروق.

9. البيان والتبيين، الجاحظ، دار الهلال- بيروت، ط1، 1423هـ.

10. التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية- تونس، 1984هـ.

11. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ.

12. التفسير الكبير، الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط3، 1420هـ.

13. تفسير المراغي، المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1365هـ.

14. التفسير الوسيط للقران الكريم، الطنطاوي، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، 1998.

15. جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1422هـ، ج16.

16. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ج11، ص219.

17. الحجاج في القران الكريم من أهم خصائصه وأسلوبه، عبدالله صوله، كلية الأداب والفنون والأنسانيات- جمهورية تونس، ط1، 2001.

18. دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، ط1، دون تاريخ.

19. شرح التلخيص، التفتازاني، دار الكتب العلمية بيروت، ط4، 1412هـ .

20. في ظلال القران، سيد قطب، دار الشروق-بيروت- القاهرة،ط1، 1412هـ.

21. الكشاف، الزمخشري، دار الكتاب العربي-بيروت، ط3، 1407هـ.

22. المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق،محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت، دون طبعة، 1420هـ .

23. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق: د:مازن المبارك و محمد علي حمدالله، دار الفكر- دمشق،ط6، 1985.